

الملكة

بقلم: حياة الياقوت

ركاز
لتعزيز الأخلاق

قصة للفتيات من إصدارات حملة ركاز الإعلامية الرابعة عشرة



الملكة

بقلم: حياة الياقوت

حينما كنا صغارا، كانت لعبتنا المفضلة اسمها "أعظم اختراع". كنا نطوف على الكبار نسألهم عن أعظم اختراع، وكانت الإجابات تتفاوت، لكن إجابة جدتي كانت ثابتة دائما: الكلمة!

كنت أستغرب هذا الجواب من امرأة لا تحب الثثرة. ثم كيف يمكن للكلمة أن تكون أعظم ما أخترع أو حتى أكتشف؟! كنت أتوق إلى أن أسمع منها -ولو لمرة واحدة- إجابة بسيطة ومبتدلة مثل التي كنت أسمعها من الآخرين: المكيف، السيارة، مجفف الشعر، مبيد الحشرات، العدسات اللاصقة... إلخ.

وهج ما كان يحيط بإجابتها حينما تقول "الكلمة". لم يكن بث عقلي الصغير يغطي ما ترمي إليه. وحينما كنت أحملق عيني بحثا عن معنى في وجهها، كانت تتبسم بهدوء وتقول:

الكلمة ملكة، إذا خرجت من فمك تملكك.

وكانت تزيد من حيرتي بطلاسمها تلك! كانت هذه المرأة شبه الأمية تستفزني عمدا، تحضّرني وتُنضجني -مع سبق الإصرار والترصد- لمواقف سأمر بها بعد سنوات طوال.

* * * * *

الجمعة، 31 أغسطس/آب، 2012

دعّنتي صديقتي سهى إلى فعالية ثقافية تنظمها جمعية الثقافة والتراث الشعبي التي كانت متطوعة فيها. كانت تلك الفعالية تستضيف مجموعة من الأوربيات المقيمات هنا لتعريفهن بثقافتنا وتراثنا. ويومها صادفت «هانا» التي لم ارتح لها منذ البدء. لا يوجد سبب معين يجعلني أكرهها من النظرة الأولى، فأنا قطعاً وحتماً أجمل منها بمراحل ... حسنا، حسنا، كانت هذه كذبة صغيرة، أعترف!

سهى: هناك من يجب أن تتعرفي عليها يا هانا؛ أعز صديقاتي هناء! هل لاحظت الشبه في اسميكما؟

هانا: مرحبا هناء، يبدو أن هذه بداية جيدة. سررت بمعرفتك.

هناء: أهلاً، شكراً!

هانا تعمل منذ ستة أشهر معلّمة للغة الإنكليزية في إحدى المدارس الأجنبية. أخذت هانا تهذر وتثرثر، كانت مهمة جدا بالتعرف على ثقافتنا، وعلى الإسلام أيضا. في عينيها أسئلة كثيرة؛ ينبوع أزرق صافٍ ينبجس حماسا. تظاهرتُ بالانشغال بمكالمة مهمة وعاجلة. فأخذت هانا ترفرف كالفراشة بين الموجودات، تسأل هذه، وتستفسر من تلك كطالبة مستجدة في سنتها الجامعية الأولى. وفي أثناء ذلك، كان شيء ما يعتمل داخلي. أخذت ألوّك قلبي، وأدمدم في نفسي: لماذا تتقافز هكذا باستعراضية؟ من تظن نفسها؟

* * * * *

سهى: هاه؟ هل أصبحتما صديقتين؟
هنا: وهل عهدت فيني أن أترك أحدا يختار لي صديقاتي؟!
سهى: لم أنت عدائية هكذا؟ خلّتك دوما مهمة بعقد الصداقات، خاصة أن لغتك الإنكليزية ممتازة. أوتعلمين؟ أشعر بأننا "هانا" لديها اهتماما عميقا بالإسلام، ولديها احتشاد من الأسئلة الحائرة التي تنتظر إجابات شافية.
هنا: احتشاد، احتشاد، كل شيء مزدحم هذه الأيام!
سهى: هنا، ما خطبك اليوم؟
هنا: بل ما خطبك أنت؟ أزعمتني بالحاحك! بغیضة!
سهى: حسنا، الفتيات ينادينني. لو كان لي طلاقك بالإنكليزية، لما ترددت في تعريف هانا بالإسلام.
هنا: "... لو تفتح عمل الشيطان!"
وقطبتُ حاجبي، وصالبت ذراعي. تركتني سهى، ورأيت في عينيها صداقتنا الطويلة تنطفئ وتطوى. كل هذا بسبب هانا. ممتاز، ممتاز جدا، صار عندي سبب إضافي لأكره هذه الـ "هانا"!

* * * * *

رجعت هانا نحوي. يبدو أن إنكليزيتي المتقنة التي اكتسبتها أثناء عمل والدي لسنوات في الخارج جعلتها تشد الرحال إليّ. لقد رجعت في لحظة رفع الشيطان فيها على رأسي راية حرب!

أتأملها وهي تقترب، وأقول في سري: أنفها أجمل من اللزوم، عملية تجميل حتما! عيناها؟ لا بد أنها تستعمل عدسات ملوّنة. و... قطعت هانا حبل ظنوني الأثيمة بسؤال طرحته بحماسة لا سبيل إلى إخفائها.

هانا: أخبريني يا هناء، هل تصادفين الكثير من الأوروبيات هنا؟

هناء: نعم، كثيرا، وأعرفهن جيدا!

هانا: جميل، وهل سبق أن صادفت أيّا ممن اعتنقن الإسلام هنا؟

هنا، هب تيار ساخن على وجهي. شعرت بالضبط كما تشعر البندقية قبل أن تدفع برصاصتها الأخيرة الفتّاكة. رسمتُ على وجهي ابتسامة صفراء، أسدلت جفنيّ ربع إسدالة، وأقلتُ لساني:

هناء: أجل، كثيرات يعتنقن الإسلام كي يتزوجن برجال موسرين من بلدي!

قلْتُها بأكبر قدر من الأذى، وبكل التعابير اللثيمة التي يمكن أن تظهر على وجهه، وبكل نبرة همّازة أمكنني استحضارها. وحدث ما كنت أتمنى، انسحبت هانا بعيدا عني. بل وانسحبت عن حضور نشاطات الجمعية نهائيا كما عرفت من إحدى العضوات. أويتُ إلى مخدتي تلك الليلة، وأخذتُ نفسي تعرض عليّ قائمة من المُسوِّغات المتقنة لكل ما فعلت. قدرة البشر على تبرير الكوارث التي يرتكبونها لا تصدّق.

مر أسبوعان. أخذت أقلب قنوات التلفاز عشوائيا، فوقع بصري وسمعي على أحد المسلمين الجدد يتكلم عن تجربة دخوله في الإسلام في إحدى القنوات. يا للهول، إنه يشبه هانا! ليس في الشكل، بل في تلك الروح المتوقدة، وفي ذاك البريق المنبعث من عينيها. غيّرت القناة بسرعة، لأفاجأ بمذيع أحد البرامج يقرأ حديث الرسول -صلى الله عليه وسلم- "لأن يهدي الله بك رجلا واحدا، خير لك من حمر النعم".

"ما الذي يحدث بالضبط؟!" صرخت في نفسي مذعورة. شعرت بأن هناك رسائل إدانة مقصودة تغمزني من كل قناة. أغلضت التلفاز، وهربت إلى غرفة أخرى. ما أعظم ذنبي! لقد نفرت نفسا من الإسلام، ومنعت رقبة من الانفكاك من إसार الشرك. كل هذا ببضع كلمات سخيفات لم أزلُهن قبل التفوه بهن. حاولت استرجاع قائمة مبرراتي، لكنها تساقطت كما يتساقط القناع التجميلي حين يجف ويبقى على الوجه أكثر من اللازم.

أخذت أستذكر الموقف مجددا، أستذكر كيف ارتسمت على وجه هانا تعابير لا أجد مفردات مناسبة لشرحها، ويكأن اللغة تعجز عن وصف وجهها المنكوب. لم يكن ذلك بسبب الإهانة الشخصية التي وجهتها إليها، بل لأنني فجعتها في حلمها وأملها. لقد حرمتها من الإسلام، وحرمت الإسلام منها. لقد بغّضت الإسلام إليها، وكل هذا بسبب غيرتي الغبية. أخذت ألوم نفسي: "هل كان من الضروري أن أترجم غيرتي إلى سكاكين كلامية؟!" هنا، أخذت كلمات جدتي تتراءى لي: الكلمة ملكة!

لقد ملكتني الكلمة. بل أسرّتني، فكيف أعتق نفسي منها؟ أهرع إلى هاتفني، وافتح برنامج "واتساب".

السلام عليكم سهى. 6:45 م ✓

كيف حالك؟ 6:45 م ✓

خشيت أن تتجاهلني سهى، فقد كنت قاسية معها. أخذت أراقب «آخر ظهور» لها في البرنامج بقلق. ثم أتى الفرج بعلامتي صح خضراوين ظهرتتا قرب رسالتي إشعارا بأنها قرأتها. تجاهلتنى سهى ولم ترد، وكيف ترد وأنا التي أخرجتها وجرحتها بكل وسائل التعبير الممكنة، بكلامي، وبحركاتي، وبتصرفاتي حين خيبت الأمل الذي عقدته عليّ في تعريف هانا بالإسلام؟

سهى، أعتذر على فظاظتي في آخر لقاء لنا. يبدو أن إبليس دخل بيننا، وأنا قررت طرده. فهلا فعلت مثلي؟ 5:50 م ✓

لا بأس، أنت صديقتي الغالية. فلننسَ ما حدث. 5:50 م

أتاني الرد سريعا ومنعشا! عجبٌ هو الكلام، كلام يجرح، وكلام يُفرج.

سهى، أريد رقم «هانا» عاجلا من فضلك! 5:50 م ✓

خيرا؟ لماذا؟ 5:50 م

سأخبرك بالتفصيل لاحقا. 5:50 م ✓

صدقت العرب حين سمّت الجريح مكلوما! وهل من شيء أكثر قدرة على التجريح من الكلمة؟ أمضيت نصف ساعة أكتب الرسائل وأمسحها. كنت أريد أن أنتقي أفضل كلام، أوقع كلام، كلام يطهر الخدوش التي أحدثتها، كلام يجب ما قبله.

مرحبا هانا. هل لديك بعض الوقت تقضيته مع شبيهتك في الاسم؟ أشعر بأنني مدينة لك بإجابات عن أسئلتك حول الإسلام. فهل تسمحين لي بتسديد ديني؟ 6:02 م ✓

عفوا! من أنت؟! 6:03 م

أنا هناء، صديقة سهى. التقينا قبل فترة في إحدى الفعاليات الثقافية. أتذكركين؟ 6:03 م ✓

6:02 م ✓✓



كان مزاجي معتكرا يومها، وبالي كان مشغولا جدا، فلم أتمكن من الحديث معك كما ينبغي. وأعتذر بشدة إن كنت قلت ما أزعجك.

لم أكذب، فالغيرة عكّرت مزاجي، والانتقام كان يشغل كل تفكيري! قرأت هانا الرسالة وتجاهلتني تماما.

6:13 م ✓✓



كل الفتيات كن يثنين على اهتمامك بالتعرف على الإسلام، لكن إنكليزيتهن لم تسعفن للتحاور معك. بالمناسبة، تملكين مهارات تواصلية عالية.



شكرا، هذا من لطفك.

6:14 م

مفعول الكلمة الطيبة والصادقة لتليين القلوب مذهل! اتفقنا على اللقاء في عطلة نهاية الأسبوع. صليت ركعتين بنية أن يوفقني الله لأصحح الكارثة التي اجترحتها. وتوالت اللقاءات بضعة أشهر، لكن كنت أشعر بأن ذلك البريق انطفأ. لم تزل هانا مهتمة بالإسلام، لكنها صارت متحفظة بشكل واضح. وأنا أموت ألف ألف مرة! سلم أياك، داومت على اللقاء معها، قللت من الحديث عن الإسلام، وأكثر من عرض الإسلام في سلوكي، في كلماتي، حتى في تعابير وجهي.

هانا: الكلمة الطيبة صدقة، الابتسامة صدقة، هكذا يقول دينكم، أليس كذلك؟

هنا: صحيح، يبدو أنك كنت تقرأين كثيرا مؤخرا.

هانا: قرأت هذا في أحد الكتب، وقرأته في تصرفاتك يا هنا.

يشهق قلبي فرحا منقوصا. لن يهدأ لي بال حتى أراها تنطق الشهادتين. لا يكفي أن أعيدها إلى حالتها الأصلية من الاهتمام بالإسلام، لا بد أن أهديها هدية خاصة، وهل من هدية خير من الهداية؟ بدأت أخذها إلى فعاليات يقيمها "مركز الوعي لتطوير العلاقات العربية الغربية"، ثم إلى "لجنة التعريف بالإسلام". ومضت أسابيع، وهانا العنيدة تعذبني باهتمامها الشديد، وبتردها الأشد.

الجمعة، 22 فبراير/شباط، 2013

أنا اليوم مع هانا في مسجد عبد العزيز العثمان حيث تُلقى خطبة الجمعة بالإنكليزية. نسيت أن أخبركم، هانا اعتنقت الإسلام قبل ثلاثة أيام. احزروا ما موضوع خطبة اليوم؟ الكلمة في الإسلام! من المقصود بهذه الخطبة؟ جموع الجماهير الأعجمية، أم أنا التي أعجمتني نفسي الأمانة بالسوء عن إجماع لساني؟

أستمع بذهول إلى الخطيب وهو يقول:

الكلمة سحر، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «إن من البيان لسحرا». وهل الشهادة التي يدخل بها الإنسان الإسلام إلا كلمات؟ وحين وصف الله تعالى سيدنا عيسى عليه السلام، قال عنه أنه كلمة: {... إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ...}. كيف تاب الله على آدم عليه السلام؟ بكلمات: {... فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ...}. وهل معجزة الله النهائية للبشرية -القرآن الكريم- إلا كلمات؟

"لَوْ" كُلمة تافهة من حرفين تفتح عمل الشيطان. وهل ما يهوي الناس به سبعين خريفا في النار، أو يكبون به على وجوههم فيها شيء سوى حصائد ألسنتهم؛ الكلام؟ اللهم اجعل كلامنا طيبا. يقول الله تعالى: {... أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ...}.

شجرة طيبة! أشرد، أغمض عيني، وأتخيل نفسي أتفيأها. أرى نفسي طفلة، أتقافز وألعب من مع حولي اللعبة ذاتها، لكنني أسألهم هذه المرة عن أعظم اختراع سيظهر في المستقبل. وتنهمر الإجابات: سيارة برمائية، مقلاة ذكية لا تحرق الطعام، حقنة لا تؤلم، ...

أهز رأسي نافية، أضحك ضحكة مكتومة، وأقول لهم بثقة: الكلمة، الكلمة، الكلمة ... هي المِلكة!